المقاومة في بلاد الزواوة (منطقة القبائل) (1857-1830)

أ/ إبراهيم مياسي

جامعة الجزائر

الملخص:

تتمتع بلاد الزواوة بموقع استراتيجي هام تؤثر في مجريات أحداث البلاد كما تتمتع أيضا بانتشار الزوايا وبث العلم والعلماء عبر التاريخ ولذلك رفعت لواء الجهاد ضد الاحتلال الفرنسي منذ 1830 إلى حوالي 1857 برز خلالها بطولات سكان المنطقة تحت كوكبة من الزعماء والأعيان والمرابطين وغيرهم من الأشراف وقد استمرت المقاومة طويلا حتى تمكن في الأخير الاحتلال الفرنسي من السيطرة عليها من القضاء على المقاومات المتتالية.

Résumé :

La région de "zouaoua" (kabylie) occupe une situation stratégique en Algérie, elle était renommée par des hommes de sciences à travers l'histoire, elle participait à la lutte contre la colonisation française dés le début de la conquête en juillet 1830 jusqu'à 1857 où elle a vécu des révolution sous des leaders tel que Boubagla et Fatma Nsoumer, et malgré cette lutte la France a pu colonisé la région en juin 1857.

مُقَدِّمَة:

عرفت بلاد الزواوة مقاومات عنيفة ومتواصلة، بعد الاحتلال مباشرة، وخاصة طيلة الخمسينيات من القرن التاسع عشر، ولم تكن هذه المنطقة بمعزل عن الأحداث الجارية في مختلف أنحاء البلاد، منذ أن وطأت أقدام الهمجية والإكبار أرض الجزائر الطيبة؛وظهر بالزواوة الكثير من الشرفاء والزعماء قادوا الثورات المتتالية.

ذلك أن بلاد الزواوة (أو بلاد القبائل، أو بلاد جرجرة) تتمتع بمكانة استراتيجية هامة جدا في نظر سلطات الاحتلال الفرنسي بالجزائر، لكونها تمثل إقليما جغرافيا متميز في الجزائر.ويقع هذا الإقليم شرق الجزائر العاصمة، ويحده البحر البيض المتوسط من الشمال وبرج حمزة(البويرة) من الجنوب، ومجرى نهر يسر من الغرب، ومجرى وادي الصومام من الشرق، لهذا عزمت هذه السلطات على إخضاعها لنفوذها، بكل الوسائل، لأنها تيقنت أن ذلك يحقق لها مكسبا وانتصارا على جميع المستويات، الاقتصادية والسياسية والثقافية.

ومما لاشك فيه هو أن أهل القبائل قد شاركوا منذ الوهلة الأولى في الدفاع عن وطنهم، وقد راعهم ما شاهدوه من حصار فرنسا للجزائر استعدادا للحملة عليها، ولما أرسل الداي حسين برسائل إلى مختلف جهات الوطن يخاطب فيها العروش العربية والقبائلية، ويوضح فيها خطر هذه الحملة وأن الدين الإسلامي يحث المسلمين على الجهاد والمقاومة ضمن الحرب المقدسة ضد الكفار(ROBIN,N,J,1876). وبمجرد وصول هذه الرسائل إلى بلاد القبائل اجتمعت جميع العروش من أجل تلبية نداء الواجب والوطن، وتركوا خلافاتهم جانبا إلى ما بعد الحرب، ثم انطلقوا جميعا في اتجاه العاصمة تحت قيادة أشرافهم من المرابطين والزعماء من الأجواد (الفرسان)، يحملون رايات طرائقهم الصوفية وزواياهم، وقد قدر عددهم بخمسة وعشرين ألف مجاهد وهو ما يمثل نسبة عشر(10/1) السكان في ذلك الوقت(ROBIN)، وهذا موقف رائع يحسب لهم ويخلده التاريخ ويبقى راسخ في الذاكرة الشعبية.

البدايات الأولى لاحتلال بلاد القبائل:

منذ السنوات الأولى للاحتلال، وضعت القوات الفرنسية يدها على أطراف من هذه المنطقة الجبلية الوعرة لجس نبضها فقط، إلا أن دخولها إلى القلب تأخر بأكثر من ربع قرن، أي عام 1857م، ذلك أن هذا التأخر يرجع إلى عوامل عديدة منها أن فرنسا كانت منشغلة بحروب وثورة الأمير عبد القادر في غرب البلاد

وفي سهل متيجة وأماكن أخرى مختلفة من جهات الوطن، كذلك مقاومة الحاج أحمد باي بشرق الجزائري وثورة الزعاطشة وثورة شريف محمد بن عبد الله سلطان ورقلة في الجنوب وغيرها، وكل ذلك كان على المستوى الداخلي، أما في الخارج فإن الحكومة الفرنسية بقيت مترددة بشأن غزو بلاد القبائل إلى غاية العقد الخامس من القرن التاسع عشر الميلادي، ففي عام 1844م احتدم النقاش حولها في الصحافة والمنابر، وقد رأى بعضهم أن وجود شبه دولة مستقلة على مقربة من عاصمة الجزائر يشكل خطرا على فرنسا خصوصا أن هذه الدولة تحتقر السلطة الفرنسية وتأوي (المجرمين والفاسدين -حسب نظرتها) الداعين إلى الجهاد، وتدعي بأنها تبيع وتشتري في أسواقها بدون أن تسمح لها بالدخول إلى جبالها داخل القبائل، كل هذا يعتبر إهانة كبيرة لشرف فرنسا لا يمكن السكوت عنه (سي يوسف محمد، 2000م).

كانت المراكز الأولى التي احتلها الجيش الفرنسي في بلاد الزواوة هي: دلس و بجاية على الساحل، وبني منصور وذراع الميزان فيما بعد، ثم احتلال سور الغزلان، وهكذا أحاطوها من الشرق والغرب والجنوب بمراكز عسكرية أصبحت بمثابة نقاط انطلاق للقوات الفرنسية للانقضاض على المناطق الجبلية الداخلية، إلا أنها واجهتها صعوبات جمة كلفتها غاليا، سواء منها وعورة تضاريس البلاد، أو شجاعة واستبسال السكان في الدفاع عنها، حيث يشهد القائد الفرنسي المحنك المارشال "راندون" (RANDON) على ذلك بقوله: "عملنا الكثير كي نتغلب على مقاومة الأهالي، إلا أننا كنا بعدين عن تحقيق خضوعهم الكامل"(RADON, CESAR. ALEXANDRE, 1875).

وكانت البوابة البحرية الهامة لبلاد القبائل هي مدينة بجاية التي احتلتها منذ عام 1833م، حيث تحركت حملة عسكرية من مدينة "طولون" بفرنسا بقيادة الجنرال "تريزال"(TREZEL) (تريزال كامي، 1981)، وذلك يوم 22 سبتمبر 1833م، ووصلت إلى بجاية يوم 29 من نفس الشهر، وقد تمكنت من احتلال المدينة بعد مقاومة باسلة من طرف السكان، ولم يستتب لها الأمر ألا بعد 1835م عندما توصلت القوات الفرنسية من عقد شبه معاهدة صلح مع أحد شيوخ المنطقة وهو الشيخ السعيد ولد أورابح، وهي الهدنة التي لم ترض كل القبائل، مما ترتب عنه حدوث مشاكل عديدة استمرت إلى أكثر من عقدين من الزمن، بدأت بمقتل الحاكم العسكري لمدينة بجاية وهو"م.سلومون"(M. SALOMON) من طرف الأهالي (DAUMAS ET FABAR,1847).

كان هذا في الجهة الشرقية لبلاد القبائل.أما من الجهة الغربية للبلاد، فنجد أنه في ليلة 18 ماي 1837م، اجتازت فرقة عسكرية بقيادة العقيد "شونبورغ"(SHAUENBURG) مضيق بني عائشة (ثنية حاليا) وهي أول مرة

تجتاز فيها قوة عسكرية فرنسية هذه البوابة المفتوحة على بلاد القبائل. وكان هذا القائد ينوي الإلتقاء بالفرقة التي كانت تحت قيادة الجنرال "برقو"(PERREGAUX) عند مصب نهر يسر، عن طريق البحر، إلا أن هذا الأخيرقد تأخر بسبب الأحوال الجوية الرديئة، وهكذا عادت هذه الفرقة خائبة(BERBRUGGER,1857).أما من الجهة الجنوبية فلم يكن الاتصال بها –بشكل مباشر– كما كان في الشرق أو الغرب، إذ نجد أنه وفقا لاتفاقية تافنة بين الأمير عبد القادر والسلطات الفرنسية، دخلت بلاد جرجرة تحت حكم الأمير عبد القادر، وعين عليها خليفته **أحمدالطيب بن سالم** ليمثل سلطته. وكانت السلطات الفرنسية ترى أنه من المهم أن تحصل على طريق يصل بين الجزائر و قسنطينة، وغير أن الأمير لم يكن مستعدا ليتنازل لها عن شبر واحد من الأرض .

كان من المقرر أن تتحرك قوة فرنسية من **ميلة** في إقليم قسنطينة، مارة بمضيق (باب الحديد)، عابرة المنطقة المتنازع عليها، متقدمة منها إلى مدينة الجزائر.وأعطيت هذه الخطة كل السرية الضرورية للمناورة في الحرب(تشرشل شارل هنري، 1974) .وبدأ التحرك نحو بجاية، حيث غادر المارشال"فالي"(Valée) والدوق "دي أورليان"(DUC D'ORLEANS) (أحد أبناء الملك الفرنسي، لويس فليب) ميلة يوم 18 أكتوبر 1839م بقوة هائلة تقدر بحوالي خمسة آلاف رجل، لتصل هذه القوة مدينة **سطيف** من اتجاهين مختلفين، فأسرع إليها القبائل للدفاع عن أنفسهم، وطلب شيوخهم مقابلة المسؤولين الفرنسيين، وعندما قابلهم كبار الضباط الفرنسيين استظهروا لهم بجوازات سفر تحمل خاتم عبد القادر، تسمح للقوات الفرنسية بالمرور، فرضي الشيوخ بذلك، إلا أنه تبين فيما بعد أن هذه الجوازات كانت مزورة، وكان ختم عبد القادر قد زور؛لهذا اجتازت القوات الفرنسية منطقة القبائل بكل سهولة، وفي أول نوفمبر دخل الدوق والمارشال مدينة الجزائر دخول المنتصرين الفاتحين، وقد دامت الاحتفالات بهذا الحادث أربعة أيام كاملة.

وصلت أخبار مرور الفرنسيين بباب الحديد إلى الأمير عبد القادر وهو في **تاقدامت**، وخلال ثمان وأربعين ساعة، راكبا فرسه ليلا ونهارا، وصل مدينة المدية، وفي اليوم الرابع من نوفمبر(1839) أرسل البرقية التالية إلى المارشال "فالي": " لقد كنا في سلام، وكانت الحدود بين بلادي وبلادك محدودة بوضوح عندما عبر ابن الملك مع قوة عسكرية من قسنطينة إلى مدينة الجزائر، وكان هذا دون إعطائي أدنى إشارة، أو حتى الكتابة إلي بكلمة تشرحون فيها سبب هذا المرور غير الشرعي بمنطقتي . ولو أخبرتموني بأنه يرغب في زيارة بلادي لقررت اصطحابه بنفسي أو لأرسلت أحد خلفائي ليقوم بذلك .ولكنكم تجاوزتم ذلك فأعلنتم أن كل البلاد الواقعة بين مدينة الجزائر و قسنطينة لم تعد تحت سلطتي. فخرق المعاهدة جاء منكم ... فإني أنذركم بأنني سأستأنف الحرب...".

وكان أحمد الطيب بن سالم خليفة الأمير عبد القادر قد كتب يطلب تعليمات جديدة عن كيف يتصرف، فكتب إليه عبد القادر كلمات مواسية ومشجعة، هكذا:

<< إن خرق الاتفاق قد جاء من المسيحيين، أن العدو أمامكم.اجمعوا أمركم واستعدوا للمعركة .إن الدعوة إلى الجهاد قد وجهت إلى كل مكان .وأنت رجل هذه الجهات . وإنني أضعك هناك لتمنع دخول العدو .

احذروا البلبلة . اربطوا أحزمتكم وكونوا مستعدين لكل شيء . كونوا على مستوى الحوادث .وتعلموا الصبر فوق كل شيء. لا تدعوا للضعف الإنساني مجالا بينكم . إنها محن أرادها الله . و إن هذه المحن قد خالطت مصير كل مسلم صالح تعهد أن يموت من أجل دينه. وسيكون النصر إن شاء الله حليف خطاكم. والسلام من عبد القادر بن محيى الدين>> .

وبكلمات مشابهة متينة المضمون وجه عبد القادر أمره بالعمل الحالي إلى خلفائه الآخرين، فقد كتب إليهم :

<<إن الكافر قد جابهنا بالخيانة، وأن الدليل على خيانته واضح كالنهار، لقد عبر بلادي دون إذني، فاجمعوا شملكم واربطوا أحزمتكم استعدادا للمعركة، إنها على الأبواب، وأن الخزينة العامة غير غنية، وأنتم أنفسكم لا تملكون النقود الكافية تحت أيديكم لتواجهوا الحرب، فأجيبوا إذن حالما تتلقون الأوامر بضريبة إضافية، كونوا عجلين في عملكم وسارعوا إلى الانضمام إلي في المدية حيث انتظركم. >>(تشرشل). وهكذا فقدت فرنسا الهدنة، بعد أن أعلن الأمير عبد القادر الحرب عليها.

لقد تخوف الفرنسيون من نشاط ونفوذ الأمير بمنطقة القبائل، فعزموا علي غزوها وإخضاعها للسلطة الفرنسية، إذ تولى الجنرال "بوجو"(BUGEAUD) منصب الحاكم العام للجزائر يوم 22 فيفري 1841م، خلفا لـ"فالي" فقرر احتلال المنطقة فجهز عدة حملات عليها بقيادته مباشرة، فانطلقت الحملة أولى من الحراش يوم 29 سبتمبر 1842م، لإخضاع شرق البلاد، وكان عليها أن تمر ببلاد القبائل، فوجدت نفسها يوم 05 أكتوبر، في مواجهة المجاهدين على وادي يسر بمنطقة **نزليوة**، وبعد معركة ضارية تكبدت القوات الفرنسية عدة خسائر منه مقتل العقيد "لوبلوند"(LEBLOND) والرائد "فرجي"(Vergé)، وجرح ستة عشر جنديا.

وانتقاما لخسائرهم، قام الفرنسيون بهدم برج الخروب الذي تم بناءه حديثا ليقيم فيه **أحمد الطيب بن سالم**، كما أحرقوا البيوت التي تحيط بالبرج، وفي هذا المكان قدم **محمد بن محي الدين** استسلامه (سي يوسف) وعين خليفة على **بني سليمان**.

انتهت هذه الحملة يوم 15 أكتوبر 1842م بعودتها إلى الجزائر، وقد وصف "روبان" هذه الحملة بقوله:" ...لم تحقق نتائج كبيرة، فهي لم تدم إلا سبعة

عشر يوما، لم تخضع بلادا جديدة، إلا أنها سمحت لهم بإدخال بعض القبائل تحت حكمهم.وهذا أثر كثيرا على أسواق الجزائر، إذ دخلها هؤلاء فنشطت الحركة التجارية وانخفضت الأسعار..."(ROBIN,N,1902).

نقل أحمد الطيب بن سالم مقر القيادة إلى وادي اقصاري شمال ذراع الميزان، وفي مركزه الجديد قام بجمع قوات كبيرة لتأديب القبائل التي استسلمت لـ"بوجو"، وكان حاكم **التيطري** في ذلك الوقت ابن الملك الفرنسي " الدوق دومال"(Duc d'Aumale) الذي كلفته السلطات العسكرية الفرنسية بالتصدي لابن سالم، ومنعه من القيام بحملته التي بدأت يوم الفاتح مارس 1843م، غير أن الأحوال الجوية الصعبة عرقلة مساعيه، ولم يحقق الشيء الكثير، وأنهى حملته، ودخل المدية يوم 21 مارس من نفس السنة (ROBIN,N).

تسارعت الأحداث وازدادت المشاكل في المنطقة على كاهل ابن سالم، خاصة بعد أن استولى "الدوق دومال" على زمالة الأمير عبد القادر يوم 16 ماي 1843م، وفي أواخر هذه السنة كذلك ألحقت به ضربة أخرى، وهي استسلام أخيه عمر الذي استقر بيسر.ورغم ذلك استمر ابن سالم في تحريض السكان ضد كل من يخضع للنفوذ الفرنسي، وطلب من الأهالي عدم التعامل مع فرنسا في أسواقها، وقد وجد مساندة من طرف قبيلة **فليسة**، ولذا قررت السلطات العسكرية الفرنسية إخضاع هذه القبيلة التي أصبحت تهدد مكانتها بالمنطقة.وقبل القيام بهذه العملية، وجه الجنرال "بوجو" إنذارا طلب فيه منهم طرد ابن سالم، والكف عن التعرض للخاضعين للسلطة الفرنسية، وإلا سيقوم بحرق بيوتهم ومحاصيلهم الزراعية، كما وجه هذا الإنذار لرؤساء القبائل التالية:**فليسة، عمراوة، بني خلفون، نزليوة، قشتولة، أولاد الغزيزوحرشاوة**، ولما لم تستجب هذه القبائل، قرر القيام بحملة جديدة، انطلقت من الحراش يوم 27 أفريل 1844م، وبلغ تعدادها ثمانية آلاف رجل، كان يقودها "بوجو" الحاكم العام للجزائر، كما شارك فيها الضابط"بيليسيه"(Pélissier) وشارك كذلك الخليفة **محي الدين** بحوالي ستة مائة فارس، غير أن هذه المحملة تعطلت بـ**يسر** نظرا للأحوال الجوية السيئة(ROBIN,).

استمرت المناوشات بين المجاهدين والقوات المعتدية طيلة صيف 1844م، وفي خريف هذه السنة أراد المارشال "بوجو" الاحتفال بنصره على الجيش المغربي في موقعة **إيسلي** يوم 14 أوت 1844م، فاستقدم زعماء وقادة الأهالي إلى مدينة الجزائر للمشاركة في هذا الحفل بفرسانهم المقدرة بحوالي ثمانمائة فارس، فاغتنم الخليفة ابن سالم مع بلقاسم اوقاسي هذا الغياب لاسترداد ميناء **دلس**، غير أن سلطات الفرنسية شعرت بخطور هذا التحرك، فسارعت بتشكيل قوة كبيرة لإحباط هذا العمل، حيث ضم الطابور العسكري، أكثر من ثلاثة آلاف وثلاث مائة رجل تحت قيادة الجنرال "كومان"(Comman)ومساعديه (ROBIN,N,1903).

مقاومة محمد بن الهاشمي ومولاي إبراهيم:

وفي عام 1845م برز عدد من الزعماء قادوا بعض الحركات الثورية منهم الشريف بوعود، ومولاي إبراهيم.

أما الشريف بوعود فاسمه الحقيقي **محمد الهاشمي**، وأطلق على نفسه اسم محمد بن عبد الله، ولقبه الناس "بوعود"، كما لقبه البعض "بوسيف"، أصله من تافيلالت (سيجيلماسة)، قدم إلى الجزائر خلال حركة **بومغزة**، في ربيع عام 1845م، بصحبة عدد من أفراد قبيلته كمهاجرين، وانضم إلى صفوف مجاهدي بومعزة، وبقي يكافح مع الثوار فترة قصيرة من الزمن ثم انفصل عنهم واستقر في جبل **ديرا** بمنطقة سور الغزلان خلال سبتمبر من نفس العام(بوعزيز يحى، 1996)، وتذكر المصادر الفرنسية أن الشريف محمد الهاشمي سمى نفسه (بومعزة) مستعيرا ذلك من اسم الرجل الذي لعب دورا بارزا في حوادث **الظهرة** سنة 1845م.ولم يكن الشريف محمد الهاشمي غريبا عن بلاد زواوة، فقد جاءها مبعوثا من قبل الأمير عدة مرات.ولاشك انه كان على صلة بزعمائها، ومنهم سي الجودي، والحاج البشير المغربي، زعيم الزاوية الرحمانية وصديق الأمير عبد القادر، ولالة خديجة، وهي أرملة سي محمد بن عيسى وزعيمة الزاوية المذكورة بعد الحاج البشير، وكذلك لالة فاطمة التي خلفت والدتها على زاوية **ورجة** (سعد الله أبو القاسم، 1992) .

تمركز الشريف بوعود في عين حازم بمنطقة سور الغزلان وأخذ يعمل على جمع الأنصار، وتهييج السكان، واستعدادهم للجهاد، وإظهار خطرهم على الفرنسيين وأعوانهم، وقد تصدى لمقاومته كل من خليفة **التيطري** ابن عيسى ابن يحي، وآغا **ديرا** أحمد ولد الباي السابق بومزراق، والجنرال "ماري –مونج"(MAREY –MONGE)، وخليفة **مجانة** أحمد بن محمد المقراني، وخليفة **سباو** محمد بن محي الدين، الجنرال "داربونفيل" (D'ARBOUNVILLE)، وهاجموه جميعا بقواتهم يومي 11و12 نوفمبر 1845م، وقتلوا له عددا من أتباعه، فانسحب إلى جبال جرجرة، واتصل بخليفة الأمير عبد القادر هناك أحمد بن سالم، وظهر إلى جانبه الشريف مولاي إبراهيم، وقد حاول كل من الشريف محمد الهاشمي و مولاي إبراهيم واحمد بن سالم أن يقسموا العمل بينهم بجبال جرجرة، وحصلوا على أسلحة ومساعدات أخرى مادية من الشيخ مبارك، شيخ الزاوية الرحمانية بآيت بوعلي في بني دوالة.

وبعد معارك عنيفة ضد الاحتلال وقع أسيرا في يد القوات الفرنسية التي أرسلته إلى فرنسا ووضعوه في معتقل قلعة "الهم"(HAM) التي بها الثائر بومعزة، وبعد أكثر من عامين تمكن من الهروب إلى تونس بمساعدة أحد الأوروبيين، ومن تونس التحق الشريف محمد الهاشمي بوعود في صيف عام 1849م بجبال جرجرة

الحصينة، حيث اتصل بسي الجودي، ويقال أنه قدم نفسه له على أنه بومعزة، وقد استقبله سي الجودي في منزله خلال شهر جويلية 1849م، بقرية إيغيل بواماس في بني بودرار، وقدم له حصانا وسيفا، عنوانا على الاعتراف به وتأييده، لهذا اشتهر بـ "بوعود" و"بوسيف"، وهكذا بدأ يجمع الناس حوله في القرى والمداشر، وقد تردد أيضا على لالة فاطمة في قرية **ورجة** لتنسيق العمل معها، وبدأ أيضا في جمع الأسلحة والمؤن استعدادا للمقاومة.وفي أوائل شهر سبتمبر 1849م تمركز بوعود وأنصاره القلائل في بعض ربى جبال جرجرة، ومال سكان **بني مليكش** لتأييده، وتردد سكان مشدالله فانتقل إلى قرية تيبحيرين القريبة من قرية سلوم، احدى قرى بني مليكش، وراسل من هناك سكان بني منصور والشرفة، وطلب منهم الانضمام إليه، غير أنهم رفضوا ودخل معهم في مواجهات بعدما استنجدوا بالقوات الفرنسية بسور الغزلان تحت قيادة الكولونيل "**بوبريطر**"(**Beauprêtre**).

وفي يوم 03 أكتوبر 1849م نشبت معركة ضارية بين الثوار والقوات الفرنسية لم يستطع أنصار بوعود أن يثبتوا، لأن القوات الفرنسية كانت تملك أسلحة حديثة بعيدة المدى، وذخيرة كافية، كما أفادها بعض الخونة بالمعلومات عن خطط الثوار. وقد حاول الشريف محمد الهاشمي أن يشجع أصحابه ويقفهم عن الفرار، فصاح فيهم وذكرهم بكثرة عددهم، وجرم التولي يوم الزحف، لكن كل ذلك لم يفده، فامتطى فرسه وتقدم بصحبة أحمد بن الجودي، وثلاثة وخمسين رجلا من سكان بني ملكيش، لكن القوات الفرنسية قد سلطت عليه الضرب حتى سقط مع فرسه الأرض، فأحاطوا به وأجهزوا عليه، وحزوا رأسه وعلقت في سوق سور الغزلان، أما جثته فقد حملها أتباعه ودفنوها في زاوية أحمد بن إدريس.

وبعد استشهاد بوعود، برز الشريف مولاي إبراهيم كخليفة له.وأتصل بأعيان المنطقة لتنظيم الجهاد منهم لالة فاطمة في ورجة، غير أنه لم يجد التأييد، وخاصة من سي الجودي، لهذا عجز عن مواصلة المشوار الجهادي، وانطفأت شخصيته بظهور قائد فذ للثورة سنة 1851م وهو الشريف محمد الأمجد بن عبد المالك، واشتهر باسم الشريف "بوبغلة"، وتحول إلى تابع له حتى توفي في شهر أكتوبر 1853م بعد مرض عضال في بني مليكش(بوعزيز يحى).

خلال 4 و 5 ماي 1849م ثارت عدة عروش في بجاية ونواحيها على الفرنسيين وأعوانهم، منهم بني سليمان وبني ميمون وغيرهم، وقاموا بالهجوم على عدة قرى موالية للاحتلال وأحرقوها، غير أن الملازم "كابارا"(CABARAS)، نائب رئيس المكتب العربي قد تمكن من صد الهجوم وأسر سبعه مجاهدين، كما قام مدير ميناء بجاية "شاربانتيه"(Charpentier) بضرب السكان المجتمعين على شاطئ بني عمروس بالمدافع من البحر(FERAUD,L,1858). واستمرت المواجهات في بجاية طيلة سنة 1850م، مواكبة مع مقاومة أهل القبائل.

لذلك اقترح الجنرال "دوتيول"(D' HAUTPOUL) احتلال بلاد القبائل عام 1850م قصد القضاء على الثورة إلا أن الحكومة الفرنسية رفضت ذلك (D'AUTPOUL,1850)، ومن بين ما قاله في تقريره ما يلي:" ...يجب إرسال حملة ضد بلاد جرجرة، وتكون أقصر من الحملات الأخرى وهي أسهل منها، لأن العدو يمكن التغلب عليه في كل مكان، وهذا العدو مرتبط بالأرض عن طريق القرى المبنية بالحجارة، وعن طريق الملكيات العقارية الأخرى، خصوصا البساتين وعن طريق المصانع ومعامل السلاح والذخيرة، إن القبائل ليس من السهل عليهم أن يفروا أمام القوات الفرنسية بسبب هذه الارتباطات، ولذا، فبمجرد انهزامهم أمام قواتنا سيعلنون عن خضوعهم لنا...".

ويقول أيضا:" ...إن القبائل سيقاومونا بلا شك، ولكن التغلب عليهم أمر سهل إذ يكفي تقدير قواتهم بشكل جيد لمعرفة ما يلزمنا من الجنود ... إن القبائل ينظرون إلى قمم جبالهم باعتزاز، فهي ملجأهم، لم تدخل إليها قواتنا إلى حد الآن مع العلم أنها توجد على مقربة من العاصمة...إن حدوث أي مشكل سياسي في أوروبا سيثير بلا شك هذه الجبال وستنقل من هناك شرارة الثورة إلى بقية أنحاء الجزائر... إن قبيلة زواوة تستطيع لوحدها أن تدافع عن أراضيها بحوالي خمس وعشرين أو ثلاثين ألف بندقية.إن هذه القبيلة تغير من حين لأخر على القبائل الخاضعة لفرنسا وتنهب ما عندها، كما أنها تعتبر ملجأ لكل هارب من السلطة الفرنسية ولكل داعية للثورة... إن الحملة إذن ضد بلاد جرجرة ضرورة ومستعجلة من أجل شرف فرنسا والقوات الفرنسية وضمان سلامة ملكيتها، وهي ستكون في صالح الزراعة والتجارة، وهي ضرورية كذلك لإزالة كل آمل للعرب في خروج فرنسا من الجزائر..."[20].

ثورة محمد الأمجد الملقب بـ"بوبغلة":

من أهم الثورات التي اندلعت في بلاد زواوة ثورة الشريف محمد الأمجد بن عبد المالك، والملقب بـ" **بوبغلة** "، (لإتخاذه بغلة يركبها في جميع تنقلاته)، وقبل أن نتعرض لثورة هذا الرجل، يجدر بنا أن نتعرف عليه، فمن هو بوبغلة؟

إن معظم المصادر و المراجع التي تعرضت للحديث عنه كانت تطلق عليه اسم الشهرة فقط وهو "بوبغلة"، ولا توجد دراسات بالعربية – في ذلك الوقت – عن هذا الموضوع، و كل الذين كتبوا عنه هم فرنسيون و معظمهم ضباط في الجيش الفرنسي، و لم يقدم لنا "بوبغلة " في ترجمته الشخصية، إلا معلومات ضئيلة يكتنفها الغموض وما يزال الالتباس قائما عن أصله، وباختصار فإنه يطلق على نفسه اسم محمد بن عبد الله مثل باقي الثوار، ويقول إنه من الغرب .

أما الضابط "روبان" (ROBIN) في دراسته عن هذا الرجل فيرجح أن اسمه الحقيقي هو محمد الأمجد بن عبد المالك و يقول إنه عند وصوله إلى المنطقة كان في الأربعين من العمر وكانت له لحية سوداء وبشرة سمراء وأنف أفطس ووجه عريض و شفاه غليظة، ويصفه كذلك بالذكاء، أما قامته فيقول إنها متوسطة ومكتملة، وتظهر على شخصيته القوة والجرأة(ROBIN.NIL JOSEPH.1881) وادعى أنه "مولى الساعة" سينقذ الأمة الإسلامية من الخطر الذي داهمها.ولاشك أن هذه الأوصاف لها دلالة خفية من قبل الضابط الفرنسي، يقول فيها أن "بوبغلة" ليس ابن المنطقة.

أما الحاكم العام "راندون"(RANDON) في مذكراته، فيقول :" لقب بـــ" بوبغلة" نظرا لإتخاذه بغلة يركبها في جميع تنقلاته، أما سنه فكان ما بين الأربعين والخامس والأربعين..." [22].

وقد أختلف الناس في أصله فالبعض يقول بأنه من المغرب الأقصى، والبعض قال بأنه كان صبايحيا قديما في حرس مليانة، وآخرون ذكر أنه كان سجينا فر من معتقل "تولون".

عند وصوله إلى المنطقة تزوج بوبغلة من المسماة فاطمة بنت سيدي يحي بن عيسى من أصل أولاد سيدي عيسى، وهم فرع من أولاد سلطان قبيلة عداورة .أما مهنته، فكان يكتب التمائم ويدور في الأسواق، ويتحدث عن نفسه فيقول بأنه اتخذ هذه المهنة حتى يتمكن من معرفة الرأي العام دون أن يثير الشبهات حول نفسه، وظهر لأول مرة في سوق سور الغزلان عام 1849م، وكان ممتطيا بغلة، وفي هذه السوق نصب خيمته و بدأ التنجيم، وقيل إنه كان يقوم بتزوير بعض النقود (AUCAPITAINE HENRI.1860).

في بداية عام 1851م، تم الإخبار عنه إلى مكتب الشؤون الأهلية بسور الغزلان، وقد صدرت الأوامر بسجنه، فأعلم بذلك، وتمكن من الهروب بسرعة بعد أن ترك زوجته عند أخيها الأطرش بن عيسى و التجأ إلى قلعة بني عباس عند المسمى أحمد بن هارون.

عندما علم الحاكم الفرنسي بمنطقة بني عباس بوجود بوبغلة هناك طلبه من هذه القبيلة إلا أنها رفضت، تسليمه لأن ذلك يتنافى وتقاليد الضيافة عندهم ولكن لما هددهم بغلق الأسواق في وجههم طلبوا من هذا الشريف أن يغادر بلادهم، فاتجه عندئذ إلى **بني مليكش**، القبيلة التي اشتهرت بدعمها لكل الثوار بالمنطقة، وكانت في مقدمة القبائل الثائرة والتي رفضت الاستسلام رغم الضغوط المختلقة التي تتعرض لها، وساعده على المجيء إلى هذه القبيلة رجلان، هما:**أعراب أوكروش والحاج علي نايت واضية**، ولكن إقامته ببني مليكش لم تطل هذه المرة، فعاد إلى بني عباس(سي يوسف محمد).

يقول بوبغلة متحدثا عن نفسه بأن مجيئه إلى بني ملـيكش كـان بـسبب إلحاح سكان هذه القبيلة، وقد استقبلوه بحفاوة بالغة وأقاموا له حفل اسـتقبال كبيـر يتناسب مع مقامه كزعيم ثائر (PERRET,E,1885).

وقبل الإعلان عن الثورة، قام بوبغلة ببعض الاستعدادات منها:

– تعرف على موقف السكان، وتفهم العاطفة الدينية عندهم، بمجرد ظهـوره كزعيم للثورة، لهذا تمكن من كسب بعض الزعماء الدينيين في المنطقة وعلى رأس هؤلاء **الحاج عمر** قيم زاوية **سيدي محمد بن عبد الرحمان** بذراع الميزان، وكذلك **سي الجودي** الذي وقف في صفه لحين من الزمن، كما قيل أن لالة فاطمة نسومر قد مدت له يد المساعدة كذلك عام 1854م.

بعد وصوله إلى بني عباس تزوج بوبغلة بامرأة ثانية وهي المسماة يمينـة بنت حمو أوبعلي وهي من قرية ثزغارت، وقد تربت في بيت زوج أمها زينـب بقرية ثيموقرا ببني عيدل، وفي بني منداس تزوج بامرأة ثالثـة وهـي المـسماة تسعذيث بنت اعمر نايت محند والحاج ؛إن زواج بوبغلة يكاد يكون زواجا سياسيا، وبواسطته تمكن من إيجاد أقارب له هنا و هناك يستطيع أن يعتمـد علـيهم عنـد الحاجة، وذلك سواء لدعم صفوفه أو للالتجاء إليهم عند محاصرتهم مـن طـرف أعدائه، وقد حاول أن يتزوج بامرأة رابعة عام 1854م، وهذه المرة اختـار لالـة فاطمة نسومر، إلا أن هذه الأخيرة كانت لا تزال في عصمة زوجها سـي يحـي ايبوخولاف من قرية عسكر بيتوراغ الذي هجرته في السنة الأولى من زواجهمـا، وانتقاما منها رفض طلاقها رغم الأموال الكثيرة التي عرضت عليه مقابـل ذلـك، وقد ماتت عام 1863م دون أن تتزوج من جديد (PERRET) .

– تحديد العناصر الرئيسية التي يجب ضربها في البداية كالشخصيات الموالية للاستعمار مثلا أو ضباط فرنسيين أو مراكز عسكرية.
– تحديد المناطق الاستراتيجية التي يمكن الالتجاء إليها إذا اقتضت الضرورة.
– دعوته مختلف القبائل للانضمام إليه.

بعد أن استكمل جميع الاستعدادات أعلن ثورته، بأن قرر القيـام بهجـوم على عزيب بن علي بن شريف وهو صاحب زاوية شلاطة قرب أقبو، حدث ذلـك يوم 10 مارس 1851م. وقد أثار الهجوم حالة من القلق والارتبـاك فـي صـفوف القوات الفرنسية المرابطة في سور الغزلان، وبني منـصور[27]، وكـرد فعـل السلطات الاستعمارية قررت إقامة مركزا عسكريا ببني منصور بقيادة الكولونيـل "**بوبريطر**"، وجاء في بعض التقارير التي قدمها العقيد "**دوريل**" **(D'AURELLES)** كيف أن ابن علي شريف حمّل السلطات الفرنسية مسؤولية ما حـدث إذ أنهـا لـم تستطع حمايته.

لم يقف طموح الشريف بوبغلة عند هذا الانتصار، بل رأى من الواجب القضاء على ابن علي شريف، ولأجل ذلك دعا إلى عقد اجتماع مع بني يجار ويلولة وطلبة زاوية ابن إدريس لتدارس الوضع، والواقع أنه كان يتوخى كسبب مناصرين جدد في يلولة أوسامر؛وتقرر في هذا الاجتماع معاودة الهجوم على ابن علي شريف في شلاطة، غير أن والدة شيخ شلاطة المدعوة عائشة اقترحت عليه الصلح وعدوله عن فكرة مهاجمة عزيب، إلا أنه رفض عرضها، مما أدى إلى وقوع مواجهات خلفت عشرة قتلى من أصحابه وفقدان 75 بندقية، وهو ما اضطره على الانسحاب نحو قرية "إيبوزيدين" بني مليكش. ونظرا لخطورة حركته، جندت السلطات الفرنسية قوات كبيرة تحت أوامر ضباط وجنرالات أمثال، "دوريل"، "بلانجي" (Blangini)، "بوبريطر"، "دي ونجي"(De Wengi)، "بوسكي" (Bosquet)، "دوبروتال"، و"كامو"(Camou).

ففي أول جوان 1851م، جرت معركة ضارية بين الطرفين استخدمت فيها القوات الفرنسية كل ما تملك من عدة وعدد، وآلات الحرب الحديثة، وقامت بحرق القرى الموجودة في المنطقة التي كانت تساند بوبغلة، مما جعل بعض هذه القرى تقديم الطاعة للسلطات الفرنسية، نظرا لهول العنف الذي استخدمته هذه الأخيرة .

وفي رسالة وجهها الجنرال "بوسكي" لابنة أخيه بتاريخ 2 جوان 1851 م من مكان المعركة قال فيها: << ...إن البارحة أول جوان تم اللقاء بين بوبغلة و قوات الجنرال كامو التي كنت ضمنها، وقد انتصرنا في هذا اليوم ... لقد فرضنا على بوبغلة مكان اللقاء، وفي ظرف ساعتين تمكنا من التغلب على خصمنا واستولينا على أسلحة كثيرة، كما قتلنا عددا كبيرا من رجاله... >> [28].

لقد انتصرت القوات الفرنسية في هذا اللقاء انتصارا كبيرا، فأملت شروطها على العديد من القبائل التي استسلمت فيما بعد وهي: أولاد يحي، أولاد عبد الله، أولاد عياد، أولاد رزوق، أولاد خالف، امقربة، بني ابراهيم، بني عشاش، بني عفود، غبولة، بني يعلا بني شبانة، بني عفيف، سبتية، بني ورثيلان، وفي اليوم نفسه تقدمت كل قبائل الحراش للاستسلام مع قائدهم شريف مزيان بن الموهوب.

في يوم 10 من شهر جوان عسكر "كامو" في ذراع الأربعاء قفسار، وفي يوم 11 أحرق قرية أولاد عمارة التابعة لأولاد رجاب، وهي الوحيدة التي لم تستسلم، وفي يوم 12، عسكر بثوريرت عند برباشة، وفي يوم 15 وصل إلى بجاية، وذلك بعد أن أخضع كل القبائل التي وجدها في طريقها.

في 17 جوان، قام الجنرال "كامو" من جديد بصعود مجرى وادي الساحل ملاحقا بوبغلة الذي اغتنم فرصة وجود "كامو" في بجاية لإثارة قبائل المنطقة من جديد، وقد التجأ إلى بني هيمل الذين وقفوا إلى جانبه و ساندوه في لقائه مع القوات الفرنسية، وقامت قوات "كامو" بحرق الزرع وكل القرى التي وجدتها هناك، وبالمقابل فإن القوات الفرنسية منيت بخسائر فادحة تتمثل في مقتل الجنرال"برال"(BARRAL) (AUCAPITAI,H,1864).

وبمجرد مغادرة بوبغلة لهذه المنطقة، أجبر "كامو" سكانها على الاستسلام، وأهم القبائل التي استسلمت: بني منصور، ثيفرا، وبني وغليس، وكان الشريف بوبغلة قد انتقل إلى أوزلاقن. وفي يوم 24 انتقل"كامو" إلى هذه الجهة، في يوم 25 جرت معركة كبيرة بين الطرفين، وكانت قوات بوبلغة في هذا اليوم تزيد عن خمسمائة رجل، وفي مقابل هذه القوة البسيطة استخدم "كامو"سبعة فيالق عسكرية ومدفعين كبيرين، وكتيبة من الفرسان، والقوم، وشارك كذلك عدد كبير من الضباط، ولكن عدم تكافؤ قوى الطرفين أدى إلى انتصار الأقوى، وقام بعد انتصاره بإحراق معظم قرى المنطقة قبل مغادرته لها، ومع ذلك فقد ألحقت خسائر بقوات "كامو" كانت تتمثل فيما يلي: مقتل ثلاثة ضباط وهم "بيلو" (Billot)، والملازم "دو فيرنوا" (Du Vernois)، والملازم ابن إدريس من "القوم"، وقتل وجرح عدد آخر من الجنود، وانسحب بوبغلة من جهته عن طريق أكفادو إلى بني صدقاء في الجهة الغربية من بلاد القبائل(سي يوسف محمد، 1851) واستقر عندهم في شمال بلاد القبائل، وفيها أخذ بوبغلة يحرض السكان على الثورة. واستطاع أن يكسب إنضمام قبائل أخرى، مثل قبيلة معاتقة وبني منداس وقشتولة، بني كوفي، مشتراس، بني بوغردان، بني اسماعيل وفريقات.

في 18 أوت 1851م، تمكن بوبغلة من إلحاق الهزيمة بالجيش الفرنسي وقائده النقيب "بيشو" (Péchot) في معركة قرب بوغني. ردت عليها السلطات الاستعمارية بحملة يقودها "بيليسي"(Pélissier) دامت شهرا كاملا، أخضعت خلالها بعض قبائل المنطقة كقبيلة بني كوفي، بوغني بني منداس[31].

ونتيجة ذلك قرر بوبغلة العودة من جديد إلى مليكش، لكسب مناصرين جدد يدعم بهم صفوفه، لتخفيف الحصار الفرنسي على بعض المداشر، فنقل نشاطه إلى الجهة الساحلية، على رأس بعض القبائل الثائرة في ناحية بجاية. وما كادت تنقضي سنة 1851م حتى لبت نداءه معظم قبائل الجهة، وهو ما جعل السلطات الفرنسية تدرك صعوبة المهمة التي تنتظرها.

ففي يوم 25 جانفي 1852م وقعت المواجهة مع القوات الفرنسية إثر الحملة التي نظمّها "بوسكي" شارك فيها نحو ثلاث آلاف عنصر من المشاة الفرنسيين. ألحقت الحملة عدة خسائر في صفوف الشريف بوبغلة (ROBIN.NIL

(JOSEPH)، وفتحت الطريق بين بلدة القصر وبجاية وهو الطريق نفسه الذي سيربط مستقبلا المنطقة بالجزائر العاصمة.

استمر بوبغلة ينتقل من قرية إلى أخرى يحاول جمع الأنصار والأتباع، إلى أن اصطدم بقوات "بوبريطر" عند منطقة الواضية يوم 19 جوان 1852م أصيب أثناءها بجروح في رأسه ومع ذلك واصل أتباعه المقاومة بقيادة بعض مقربيه أمثال محمد بن مسعود من ءنوغة واحمد بن بوزيد من عائلة بورنان التي تنتمي إلى عائلة أولاد مقران.

دخلت الثورة مرحلة ثانية سنة 1854م، فخلال هذه السنة تمكن الشريف بوبغلة من تجديد الثورة، وقد تهيأت له الظروف عندما قامت السلطات الفرنسية بإرسال جيوشها في حرب القرم، فأعلن للقبائل: "**إن المناسبة قد حانت لطرد فرنسا من الجزائر لأنها أصبحت ضعيفة جدا ولا يتطلب الأمر منهم إلا مجهودا بسيطا ليلقوا بها في البحر الذي جاءت عن طريقه**". على أن المنطقة طوال كل هذه الفترة بقيت تعيش في جو من الغليان، مما أدى بالحاكم العام الفرنسي إلى إرسال حملة بقيادة النقيب "وولف"(Wolff). وبتواطؤ مع الباش اغا أوقاسي، حيث أقدمت القوات الفرنسية على مهاجمة عزازقة، وذكر "وولف" في تقريره عن المعركة، مدى استماتة سكان عزازقة في الدفاع عن ديارهم.

حملة راندون 1854م

قررت السلطات الفرنسية القيام بحملة عسكرية أوكلت قيادتها للجنرال "راندون"، ففي رسالة كتبها هذا الأخير مؤرخة في 26 ماي 1854م بين فيها الأهداف المتوخاة من الحملة قائلا:

"**إن هدفي الأول هو ضرب قبيلة بني جناد التي قدمت العون في هذه المدة الأخيرة للشريف بوبغلة الذي ينبغي أن يعاقب، ويكون عقابه درسا للآخرين، وبعد ذلك أوجه جهودي إلى القبائل الأخرى التي تقع على الضفة اليمنى لسباو، وابتداء من يجار إلى غاية زرخفاوة على شاطئ البحر، ولهذا الغرض استعمل ثمانية فيالق عسكرية من دائرة الجزائر وأجمعهم في مقلع وسبعة فيالق من قسنطينة وسيكون وصولهم إلى المنطقة عن طريق قصر كبوش...**" ("روبان، سي يوسف"). ويبدو واضحا أن الهدف من الحملة كان يتمثل في إخضاع منطقة القبائل، وقبيلة بني جناد تحديدا، ولهذا الغرض بالذات استقدم قوات إضافية من وهران والجزائر بقيادة الجنرال "كامو" ومن قسنطينة بقيادة الجنرال "ماك – ماهون".

كانت قرية أغريب الموقع الذي يحتمل أن تجري فيه المعركة، لذا تقرر تحديدها كهدف أولي لضربات الجيش الفرنسي. ورغم ما تمتع به من تحصين

دفاعي من حيث وقوعها على مرتفع، أو من حيث الاستعدادات التي أقامها أهلها للدفاع عنها، إلا أنها لم تصمد أمام القوات الفرنسية التي أحكمت السيطرة عليها. وفرضت على بني جناد غرامات مالية لوقوفها إلى جانب بوبغلة. وبعد غريب عسكرت الحملة في بوبهير وهي منطقة قريبة من العروش الثلاث: بني يجار وبني يتوارغ وبني يحي على أن هدف "راندون" كان الوصول إلى بني يحي، وعليه دبر خطة أوهم بها قبائل المنطقة رغبته في الاتجاه إلى بني يجار الذين هيئوا أنفسهم لصد حملته والواقع أن الحملة اتجهت إلى بني يحي.

خلال هذه المرحلة وقعت مواجهات بين المقاومين والقوات الفرنسية دامت أربعين يوما خلفت خسائر بشرية قدرتها المصادر الفرنسية بتسعين قتيلا وخمسمائة وثلاثة وتسعين جريحا في صفوف الفرنسيين دون أن تشير إلى خسائر الطرف الجزائري. وقتها كان بوبغلة جريحا في زاوية سي العربي شريف وقد نصحه بنو جناد بمغادرة المنطقة. وبالفعل انتقل بوبغلة إلى بني يجار ومنها إلى يلولا أومالو ثم إلى بني يني، ولاحقا إلى مليكش حيث عاود نشاطه.

وفي يوم 26 ديسمبر بعد الظهر خرج بوبغلة رفقة فارسين من أتباعه وهما عبد القادر المذبوح وأعراب أوكروش وحوالي ستين رجلا من بني مليكش، وقصد الجميع أملاك بني عباس الذين كانوا منشغلين بحرث مزارعهم في حوض وادي الساحل على الضفة اليمنى من النهر قرب تازمالت، وأخذ منهم بالقوة –من الرجال الذين كانوا يحرثون– أربعة ثيران وساقها مع أتباعه، وقفل الجميع راجعين إلى بني مليكش.

سارع رجال بن عباس إلى طلب النجدة من تارمالت وخرج منها القوم بسرعة تحت قيادة القائد لخضر بن أحمد المقراني وجرى الجميع خلف بوبغلة الذي كان مسرعا إلى أرض بني مليكش، وبسبب كثرة الأوحال تعثر فرسه، فأطلق عليه القوم النار، فترجل وواصل السير جريا على الأقدام، وقد أراد أن يختفي داخل الغابة، ومن هناك ينتقل إلى بني مليكش، ولما لاحظ القائد لخضر ذلك، أمر رجاله أن يترجلوا، وكان معه ثلاثة فرسان، فجرى الجميع وراءه وأطلقوا النار عليه، ورد بوبغلة من جهته على خصومه، فأصيب بجرح في ساقه، وعلى الرغم من ذلك زحف كي يخرج من مكان الخطر، إلا أن القائد وصله مع رجاله و طلب منه بوبغلة ألا يقتلوه و أفهمهم أن تسليمه حيا يكون أحسن لهم، إلا أن القائد لخضر ارتمى عليه وقطع رأسه بيده قبل أن يلفظ أنفاسه الأخيرة (بني منصور، سي يوسف، 1854).

أخذ هؤلاء رأس الشريف وسلموه إلى حاكم برج بوعريريج، وقام هذا الأخير بربطه على عمود وسط السوق كي يمثل به وحتى يراه الجميع ليتعظوا بما حدث لهم إن حاولوا عصيان طاعة فرنسا وعلى مقربة منه عرضوا حصانه

وسلاحه مع ثيابه والختم الذي كان يستعمله في مراسلاته، ثم أخذت السلطات الفرنسية رأس "بوبغلة" وحنطته واحتفظت به في متاحف باريس مع رؤوس شهداء آخرين إلى يوم الناس هذا. دفن في تازمالت. وقد إختلفت الروايات حول ظروف استشهاده.

المقاومة بزعامة بوحمارة:

لم تتوقف المقاومة في منطقة جرجرة باستشهاد الشريف محمد الأمجد المدعو بوبغلة بل تواصلت في ثورات شعبية تزعمها هذه المرة ثائر آخر يلقب بـ " بوحمارة ".وهو الشريف بن قويدر التيطراوي من عائلة المفاتة في بوغار إقليم التيطري، قاوم أبوه في بلاد القبائل إلى جانب الشريف بوبغلة، وأصبح خليفة له بعد وفاة هذا الأخير، لكن حالته الصحية منعته من مواصلة الكفاح والمقاومة، فولى إبنه المختار الشريف مكانه وقدّمه للناس كزعيم وكـ "مولى الساعة". أطلق عليه إسم "بوحمارة" لأنه إتخذ لنفسه دابة يركبها في تنقلاته، استعان ببوداودي وأرزقي بورنان إلى جانب أبيه الذي كان العقل المدبر والمخطط لكل أعماله.

في أوّل الأمر لم يلق بوحمارة أي تشجيع أو ترحيب من شيوخ المنطقة الذين استقبلوه ببرودة وفتور، مما فرض عليه التنقل بحثا عن الأنصار والمساعدين. فاتجه إلى بني فرواسن وبني شعيب واتصل بلالة فاطمة نسومر بقرية ورجة، ثم انتقل إلى بني مليكش التي كانت في كثير من المرات حصنا منيعا يأوي الثوار ومركزا يحتضن الثورة ويدعمها. أخذت حركة بوحمارة تنتشر وتمتد رغم الصعاب التي اعترضته، خاصة بعد قيام السلطات الفرنسية بتشديد المراقبة على الأهالي للقضاء على المقاومة في هذه المنطقة، فمنعت التنقل بدون رخصة بين بني منقلات وبني بوسيف. رغم ذلك كسب تأييد بعض الذين كانوا يعارضون حركته أوّل الأمر كالشيخ أوعراب في بني راثن. ورغم قصر عمر حركته، إلاّ انه قاد عدة هجومات منها هجوم 31 أوت 1855م على بعض المخبرين الفرنسيين وأعوانهم في قرية جمعية الصهريج وضواحيها قرب المقلع وقد قتل فيها وجرح الكثير من الطرفين.

وتشاء الظروف أن تكون نهاية بوحمارة على يد أحد خصومه الذي سلّمه إلى الكولونيل بوبريطر والذي أمره بقطع رأسه أمام الناس ليكون عبرة لكل من تسول له نفسه الخروج عن طاعة فرنسا. وكان ذلك يوم 29 ديسمبر 1855م وبموته إنتهت مرحلة اخرى من مراحل المقاومة في بلاد القبائل.

دور لالة فاطمة نسومر:

لم تكن لالة فاطمة نسومر غافلة عمّا يجري حولها من تطورات في المنطقة، حيث كانت تشارك في المقاومة مع الأهالي، إلا أن هؤلاء تراجعوا بعد

مقاومة عنيفة وطويلة، نتيجة عدم تكافؤ القوى، من حيث العدة والعدد، وفي احدى المعارك جرح بوبغلة فأنقذته لالة فاطمة ووقفت إلى جانبه وبقيا في بني ينني يحرضان على الجهاد، وشاركته في أغلب المعارك التي خاضها منها معركة وادي سباو بتاريخ 7 أفريل 1854م ضد القوات الفرنسية بقيادة الجنرال "وولف"، حيث أظهرت فاطمة نسومر شجاعة فائقة، وحققت انتصارات أخرى ضد العدو بنواحي عديدة منها تحليجت ناث، وبورجة، وتوريتت موسى، تيزي بوايبر، وبرهنت، على أن قيادة المقاومة الجزائرية لم يختص بها الرجال فقط بل شاركت فيها النساء بما أوتين من قوة.

وعند وفاة الشريف بوبغلة آخر عام 1854م لم تتوقف بل واصلت الثورة، وخاضت عدة معارك ضد القوات الفرنسية، أهمها معركة" إشريضن" التي وقعت في 24 جوان 1857م في الأربعاء نايت إيراثن غير أن عدم تكافؤ القوى أدى إلى انهزام الثوار فانسحبت نحو جبال جرجرة وتحصنت بها وكونت فرقا سريعة من المجاهدين يتبعون مؤخرات الجيش الفرنسي ويقطعون عليهم طرق المواصلات والإمدادات.

نتيجة للهجمات المتواصلة للمجاهدة وتعاظم شأنها، تخوفت السلطات الفرنسية من ازدياد خطرها، فجهزت لها جيشا قوامه 45 ألف رجل يقوده المارشال راندون الذي ترقى إلى هذه الرتبة يوم 1856/03/19م اتجه صوب قرية "أيت تسورغ" أين يتمركز الثوار. وقد التقى الفريقان بتاريخ 11 جويلية 1857م بدوار "إليتن" وكان يقدر عدد الثوار بـ 7000 رجل وعدد من النساء. وتذكر المصادر أن لالة فاطمة كانت ترتدي لباسا حريريا أحمر ترعب به الأعداء. ولكن رغم المقاومة الشديدة التي أبداها الثوار، إلا أن الكفة رجحت لصالح الفرنسيين نتيجة عدم تكافؤ القوى. وكان من نتائج المعركة طرح المفاوضات وإيقاف القتال بأربعة شروط منها:

- إعادة انتشار القوات الفرنسية خارج القرى و التجمعات السكانية .
- رفض دفع الضرائب .
- عدم متابعة و معاقبة قادة الثورة .
- الالتزام بحماية الأشخاص والممتلكات .

قاد المفاوضات عن الجانب الفرنسي الجنرال "راندون"، وعن الجانب الجزائري سي الطاهر شقيق لالة فاطمة نسومر. وقد تظاهر راندون بقبول شروطها إلا أنه أمر بإلقاء القبض على الوفد الجزائري بمجرد خروجه من المعسكر، لم يكتف بذلك بل أرسل النقيب " فوشو" إلى ملجأ لالة فاطمة نسومر وأسرها هي وعدد من النسوة، وتفيد المصادر أن الجيش الفرنسي اثر هذه المعركة

صادر العديد من الممتلكات، ونهب حلي النساء و50 بندقية وأكثر من 150 مجلدا من الكتب العلمية والدينية.

وقد أبعدت لالة فاطمة نسومر إلى زاوية بني سليمان قرب تابلاط تحت مراقبة الباش آغا الطاهر بن محي الدين، وبقين هناك ست سنوات إلى أن وافتها المنية في سبتمبر 1863م عن عمر يناهز 33 سنة.

وتصويرا لشجاعتها وبطولتها يكفي القول انها خلال انتفاضتها التاريخية 1851 ــ 1857م، استطاعت أن تواجه أكثر من عشر جنرالات فرنسيين محنكين ولقنتهم دروسا في اللطولة والإقدام.(ROBIN.1899)

الخاتمة:

اشتهرت بلاد الزواوة أي منطقة القبائل منذ القديم بانتشار الزوايا التي تعج بالعلم والعلماء وقد تخرجت منها فطاحلة العلم كما تتميز المنطقة بموقع استراتيجي في قلب الجزائر ولهذا اهتمت بها فرنسا منذ الوهلة الأولى مما جعل سكان الزواوة يشاركون في الصدمات الأولى للاستعمار حيث شاركت المنطقة بحوالي عشر سكانها المقدر بحوالي 25 ألف مجاهد شاركوا في الدفاع عن مدينة الجزائر تحت لواء الزعماء والمرابطين.

واستمرت المقاومة لأكثر من ربع قرن بدون انقطاع تتصاعد حينا وتخمد أحيانا وقد تشتد الثورات حينما يشعر السكان بالخطر الداهم وقد تزعم هذه المقاومة شخصيات عديدة منها المقاومة الرسمية لدولة الأمير عبد القادر تحت قيادة خليفته في القبائل أحمد الطيب بن سالم وقد واكبت هذه المقاومة مقاومة محمد بن الهاشمي الملقب باسم محمد بن عبد الله ولقبه الناس " بوعاود" وبعد استشهاده رفع لواء الجهاد والثورة محمد الأمجد الملقب " بوبغلة" واستمر يجاهد إلى أن استشهد ثم قام القائد الفرنسي روندون بحملة شرسة على المنطقة ليقضي على جيوب الثورة الباقية هناك خاصة المقاومة بزعامة "بوحمارة" وهوالشريف بن قويدر التيتراوي وتلتها مقاومة لالة فاطمة نسومر التي برهنت عن شجاعة وبطولة نادرة قهرت الكثير من الضباط العسكريين المحنكين وخلدت اسمها في تاريخ الجزائر المجيد.

الإحالات:

(1) N.Joseph ROBIN ,<< Notes historiques sur la grande Kabylie de 1830 à1838 >>, in Revue Africaine,n°20(1876),p.46.

(2) – ROBIN,<<Notes historiques….>>, op. cit ,p.50.

(3) – محمد سي يوسف، مقاومة منطقة القبائل للاستعمار الفرنسي، "ثورة بوبغلة"، تيزي وزو (الجزائر)، إلاقل، 2000م، ص.60.

(4) – César Alexandre RANDON, Mémoires ,Paris,ImTypographie,1875,p.53.

(5) – هو الجنرال "كاميي تريزال"(Trézel Camille) جنرال فرنسي، ولد في باريس 1780 وتوفي بها 1860 م، عين في رتبة جنرال سنة 1825م وشارك في الحملة على الجزائر(صيف 1830م)، ونجح في الحملة على بجاية(سبتمبر1833م)، ثم عوض الجنرال "ديمشال"(DESMICHELS)، غير أنه انهزم شر هزيمة أمام الأمير عبد القادر في معركة المقطع(1835م)، رجع على إثرها إلى فرنسا وأصبح من الأعيان(1846)، ثم عين وزير الحرب(1847-1848م). petit ROBERT2 ,Paris 1981,p.1838.

(6)– M. DAUMAS et FABAR, La Grande Kabylie, Etude Historique, Paris,Hachette,1847,p.423.

أنظر أيضا: سي يوسف، مقاومة القبائل، ص.49.

(7)– A. BERBRUGGER, Les époques militaires de la grande Kabylie, Paris, Bastide,1857,p.13.

(8) – شارل هنري تشرشل، حياة الأمير عبد القادر، ترجمه وقدم له وعلق عليه الدكتور أبو القاسم سعد الله، تونس، الدار التونسية للنشر، 1974، ص.180.

(9) – تشرشل، حياة الأمير، ص.181-182.

(10) – سي يوسف، مقاومة القبائل، ص.52.

- (11)N. ROBIN ,<< Notes historiques sur la grande Kabylie de 1838 à1851 >> , in Revue Africaine,n°46(1902),p.227.

أنظر أيضا: سي يوسف، مقاومة القبائل، ص.52.

- (12)N. ROBIN ,<< Notes historiques sur la grande Kabylie de 1838 à1851 >>,op. cit.,p.230.

- (13) ROBIN ,<< Notes historiques sur la grande Kabylie de 1838 à1851 >>,op. cit.,p.245.

- (14)N. ROBIN ,<< Notes historiques sur la grande Kabylie de 1838 à1851 >> , in Revue Africaine,n°47(1903),pp.62-64..

(15) – الدكتور يحي بوعزيز، ثورات الجزائر في القرنين التاسع عشر والعشرين، الطبعة الثانية، الجزائر، منشورات المتحف الوطني للمجاهد، 1996، ص.96.

(16) – أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية، 1830-1900، الجزء الأول، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1992، ص.343.

(17) – الدكتور يحي بوعزيز، ثورات الجزائر في القرنين التاسع عشر والعشرين، ص ص.99-101.

(18)L. FERAUD , << Notes sur Bougie >> ,in Revue Africaine ,n° 3,(1858-59),pp.443-445.

(19)D'HAUTPOUL, Rapports adressés à Mr le Président de la république par le ministre de la guerre,Paris,imp.national,1850,110.

أنظر أيضا: سي يوسف، مقاومة القبائل، ص.60.

(20)Ibid.,p.110.

(21)Nil Joseph ROBIN , << Histoire de Chérif Bou Baghla>>.in Revue Africaine, n° 25 (1881),pp.307-308.

– (22) *Mémoires du Maréchal DE MAC MAHON , Duc de MAGENTA, Souvenirs d'Algérie, publiés par le comte GUY DEMIRIBEL , PARIS, PLON ,1932, p.61.*

(23)Henri Aucapitaine , La Zaouia de Chellata , excurtion chez les Zouaoua de la haute Kabylie, Genève,Imp.deJ.G.Fick,1860,p.144.

(24) – محمد سي يوسف، **مقاومة منطقة القبائل للاستعمار الفرنسي**، ص:77.

(25)E. Perret,**Les Français en Afrique de 1848 à nos jours**, (1856),Récits Algériens,7éme éd.,Paris, Barral et Bloud,1885,p.13. ،

(26) Les Français en Afrique..., p.132.؛Perret

(27)Archives d'Outre – Mer, 2 H 14.

(28)Le Moniteur Algérien ,n°1125, du 5 /..6 / 1851.Voir Aussi,Colonne Expéditionnaire de la Kabylie,Journal de marche du 26 mai au 4 juin 1851,A.M.G.,1H214.

(29)H. Aucapitai **Les Kabyles et la colonisaton de l'Algérie**, Paris, Challamel,1864,pp.165 –16 6.

(30) – محمد سي يوسف، مقاومة منطقة القبائل للإستعمار الفرنسي، ص:97. – أنظر أيضا: Randon , Rapport adressé à Mr le président de la république par le ministre de la guerre sur les opérations militaires du printemps de 1851 au 16 Août 1851,Paris, imp.nationale,1851,(63p.),pp.35 – 36.

(31)Le maréchal Pélissier, Journal des marches et opérations des colonnes expéditionnaires de l'est sous les ordres de M.le Général de division, Pélissier, gouverneur général par intérim, du 23 Octobre au 27Novembre 1851,(49p.),A.M.G.,Carton,H.23.

(32)Lettres du maréchal BOSQUET à sa mère ,1830 – 1858 ,Paris, 1894,pp.243 – 244. Bosquet,Nil Joseph ROBIN , << Histoire de Chérif Bou Baghla>>,op. cit.,pp.

(33) – روبان، المصدر السابق، أنظر أيضا: سي يوسف، مقاومة منطقة القبائل، ص.133.

(34) – تقرير حاكم بني منصور "كمات"[Camatte] بتاريخ 26 ديسمبر 1854م، أنظر: محمد سي يوسف، مقاومة منطقة القبائل للاستعمار الفرنسي، ص:201.

(35)ROBIN < Notes concernant l'insurrection de 1856-1857de la grande kabylie>>, in revue africaine n°43(1899) p.41 et suivantes.